حَقِيقَةُ النُّسُكِ وَالضَّحَايَا فِي الإِسْلَامِ

مقتبس من كلام
حضرة مرزا غلام أحمد
الإمام المهدي والمسيح الموعود
عليه السلام

ذكرنا في أعداد سابقة كيف أن الله تعالى علّم حضرة الإمام المهدي أربعين ألفا من الجذور العربية في ليلة واحدة، وأصلح بذلك عيبا كان يعانيه وهو عدم القدرة على الكتابة باللغة العربية، وكان علماء زمانه يعيرونه ويسخرون منه بسبب هذا العيب، فأصلحه الله في ليلة كما سبق وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبعد ذلك تحدى الإمام المهدي عليه السلام جميع الأدباء في الهند وفي البلاد العربية أن يتباروا معه في الكتابة باللغة العربية، فلم يجرؤ أحد منهم على قبول التحدي. ثم أعلن حضرته أن اللغة العربية هي أم اللغات، وأثبت ذلك بالدليل والبرهان المستقى من كلام الله تعالى. ثم تحدى الإمام المهدي علماء زمانه أن يفسروا القرآن بأسلوب عربي بليغ، وكتب هو تفسيرا لسورة الفاتحة في سبعة أيام، ما زال شاهدا على تأييد الله تعالى له وعجز جميع مخالفيه ومعارضيه. وبمناسبة عيد الإضحى المبارك نعرض لقرائنا الكرام معجزة أخرى لسيدنا مرزا غلام أحمد عليه السلام في مجال اللغة العربية وهي معجزة الإلقاء الفوري.

إن معرفة الإمام المهدي عليه السلام باللغة العربية معجزة بالغة، ليست من فعل إنسان ولا تدبير جان، بل هي من فضل الله المنّان، علّمه إياها الذي علّم البيان وأنزل الفرقان.

كان ذلك عام ١٩٠٠ في يوم الحادي عشر من أبريل (نيسان)، الموافق العاشر من شهر ذي الحجة عام ١٣١٧ هجريا، وكان ذلك هو يوم عيد الأضحى المبارك. وفي اليوم السابق.. أي صباح يوم عرفة، أرسل حضرته إلى الحاج نور الدين رسالة ذكر له فيها أنه يريد أن يقضي كل يوم عرفة وليلة العيد في الدعاء له ولأحبّائه من أفراد الجماعة، وطلب منه أن يرسل إليه أسماء كل الحاضرين الموجودين في ذلك الوقت حتى يذكرهم خلال الدعاء. وفي صبيحة يوم العيد المبارك، ذكر الإمام المهدي عليه السلام للشيخ عبد الكريم، أن الله تعالى قد أمره أن يلقي خطبة العيد باللغة العربية. وبعد أداء صلاة العيد، استعد سيدنا أحمد لإلقاء خطبة العيد، فأشار إلى كل من مولانا نور الدين والشيخ عبد الكريم أن يدنوا منه لكتابة الخطبة. ثم استهل الخطبة وقال: "يا عباد الله..."، ثم قال: "اكتبوا الآن واسألوني حالاً ما لم تستطيعوا فهمه وإلاّ تذهب عني هذه الكلمات". واستطرد سيدنا أحمد عليه السلام في إلقاء الخطبة ارتجالا، وكل من الحاج نور الدين والشيخ عبد الكريم يدوّن كل كلمة تخرج من فمه حتى انتهت الخطبة. وقام الشيخ عبد الكريم بترجمتها إلى اللغة الأردية لكي يفهمها الحاضرون من المصلين. وقد ذكر سيدنا أحمد عليه السلام، أن إلقاء هذه الخطبة المرتجلة بنجاح تام، كان آية من آيات استجابة الدعوات التي دعا بها ليلة يوم العيد. وأثناء قراءة الترجمة الأردية، فاضت منه مشاعر الحمد والشكر لله تعالى، فخر ساجدا وسجد معه الحاضرون كلهم، وكان عددهم زهاء مائتين. ولما رفع سيدنا أحمد رأسه من السجدة قال: لقد رأيت لفظ: "مبارك" مكتوبا بحروف حمراء، وكان ذلك آية القبول من الله تعالى.

وقد أشار أيضا في كتابه: "حقيقة الوحي" إلى هذه الخطبة الإلهامية فذكر أن الله قد أوحى إليه في صباح يوم عيد الأضحى أن يخطب باللغة العربية، وأن الله قد وهبه القوة لذلك. وتلقى أيضا وحيا باللغة العربية يقول: (كَلاَمٌ أُفْصِحَتْ مِنْ لَدُنْ رَبٍّ كَرِيمٍ). وقال كذلكَ ما تعريبه:

"…. فعندئذ قمتُ بعد صلاة العيد للخطاب بالعربية، والله يعلم أني أُعْطيتُ قوة من الغيب، وكان لساني ينطلق بخطاب عربي فصيح يفوق كل ما أملك من قوة. وما أحسب أن رجلا من البشر، يستطيع أن يُلقي مثل هذا الخطاب الطويل البليغ، غير المسجل في الأوراق، بغير أن يوحَى إليه ذلك وحيا ..... سبحان الله! إن عينا نضّاخة من الغيب كانت تتدفّق عندئذ، ولم أكن أشعر ساعتئذ إن كنت أنا الذي أتكلم، أم أن ملكا من الملائكة يصرف أعنة لساني، لأنني كنت أعرف أن قوة غيبية تسيطر على مداركي، ولم ينطلق لساني إلاّ بكلمات هي من صنع الله عز وجل، وكانت كل جملة آية بيّنة من بيّنات الله تعالى…" (حقيقة الوحي ص٣٦٢)

والآن.. ننقل إلى القراء الكرام مقتبسا من هذه الخطبة الإلهامية التي ألقاها سيدنا مرزا غلام أحمد عليه السلام مرتجلا في يوم عيد الأضحى فقال:

«يَا عِبَادَ اللهِ.. فَكِّرُوا فِي يَوْمِكُمْ هَذَا يَوْمِ الأَضْحَى، فَإِنَّهُ أُودِعَ أَسْرَارًا لأُولِي النُّهَى. وَتَعْلَمُونَ أَنَّ فِي هَذَا الْيَوْمِ يُضَحَّى بِكَثِيرٍ مِنَ الْعَجْمَاوَاتِ، وَتُنْحَرُ آبَالٌ مِنَ الْجِمَالِ وَخَنَاطِيلُ مِنَ الْبَقَرَاتِ، وَتُذْبَحُ أَقَاطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ رَبِّ الْكَائِنَاتِ. وَكَذَلِكَ يُفْعَلُ مِنَ ابْتِدَاءِ زَمَانِ الإِسْلاَمِ، إِلَى هَذِهِ الأَيَّامِ. وَظَنِّي أَنَّ الأَضَاحِي فِي شَرِيعَتِنَا الْغَرَّاءِ، قَدْ خَرَجَتْ مِنْ حَدِّ الإِحْصَاءِ، وَفَاقَتْ ضَحَايَا الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ مِنْ أُمَمِ الأَنْبِيَاءِ، وَبَلَغَتْ كَثْرَةُ الذَّبَائِحِ إِلَى حَدٍّ غُطِّيَ بِهِ وَجْهُ الأَرْضِ مِنَ الدِّمَاءِ. حَتَّى لَوْ جُمِعَتْ دِمَاؤُهَا وَأُرِيدَ إِجْرَاؤُهَا لَجَرَتْ مِنْهَا الأَنْهَارُ، وَسَالَتِ الْبِحَارُ، وَفَاضَتِ الْغُدُرُ وَالأَوْدِيَةُ الْكِبَارُ.

وَقَدْ عُدَّ هَذَا الْعَمَلُ فِي مِلَّتِنَا مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، وَحُسِبَ كَمَطِيَّةٍ تُحَاكِي الْبَرْقَ فِي السَّيْرِ وَلُمْعَانَهُ. فَلأَجْلِ ذَلِكَ سُمِّيَ الضَّحَايَا قُرْبَانًا، بِمَا وَرَدَ أَنَّهَا تَزِيدُ قُرْبًا وَلُقْيَانًا، كُلَّ مَنْ قَرَّبَ إِخْلاَصًا وَتَعَبُّدًا وَإِيمَانًا. وَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ نُسُكِ الشَّرِيعَةِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالنَّسِيكَةِ. وَالنُّسُكُ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ جَاءَ لَفْظُ النُّسُكِ بِمَعْنَى ذَبْحِ الذَّبِيحَةِ، فَهَذَا الاشْتِرَاكُ يَدُلُّ قَطْعًا عَلَى أَنَّ الْعَابِدَ فِي الْحَقِيقَةِ، هُوَ الَّذِي ذَبَحَ نَفْسَهُ وَقُوَاهُ، وَكُلَّ مَنْ أَصْبَاهُ، لِرِضَى رَبِّ الْخَلِيقَةِ. وَذَبَّ الْهَوَى، حَتَّى تَهَافَتَ وَانْمَحَى، وَذَابَ وَغَابَ وَاخْتَفَى. وَهَبَّتْ عَلَيْهِ عَوَاصِفُ الْفَنَاءِ، وَسَفَتْ ذَرَّاتِهِ شَدَائِدُ هَذِهِ الْهَوْجَاءِ.

وَمَنْ فَكَّرَ فِي هَذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ الْمُشْتَرَكَيْنِ، وَتَدَبَّرَ الْمَقَامَ بِتَيَقُّظِ الْقَلْبِ وَفَتْحِ الْعَيْنَيْنِ، فَلاَ يَبْقَى لَهُ خَفَاءٌ وَلاَ مِرَاءٌ، فِي أَنَّ هَذَا إِيمَاءٌ، إِلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ الْمُنْجِيَةَ مِنَ الْخَسَارَةِ، هِيَ ذَبْحُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ، وَنَحْرُهَا بِمُدَى الانْقِطَاعِ إِلَى اللهِ ذِي الآلاَءِ وَالأَمْرِ وَالإِمَارَةِ، مَعَ تَحَمُّلِ أَنْوَاعِ الْمَرَارَةِ، لِتَنْجُو النَّفْسُ مِنْ مَوْتِ الْغَرَارَةِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الإِسْلاَمِ، وَحَقِيقَةُ الانْقِيَادِ التَّامِّ. وَالْمُسْلِمُ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ نَحَرَ نَاقَةَ نَفْسِهِ وَتَلَّهَا لِلْجَبِينِ، وَمَا نَسِيَ الْحَيْنَ فِي حِينٍ.

فَحَاصِلُ الْكَلاَمِ.. أَنَّ النُّسُكَ وَالضَّحَايَا فِي الإِسْلاَمِ، هِيَ تَذْكِرَةٌ لِهَذَا الْمَرَامِ، وَحَثٌّ عَلَى تَحْصِيلِ هَذَا الْمَقَامِ، وَإِرْهَاصٌ لِحَقِيقَةٍ تَحْصُلُ بَعْدَ السُّلُوكِ التَّامِّ. فَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ كَانَ يَبْتَغِي رِضَاءَ اللهِ الْوَدُودِ، أَنْ يَفْهَمَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَيَجْعَلَهَا عَيْنَ الْمَقْصُودِ، وَيُدْخِلَهَا فِي نَفْسِهِ حَتَّى تَسْرِيَ فِي كُلِّ ذَرَّةِ الْوُجُودِ، وَلاَ يَهْدَأُ وَلاَ يَسْكُنُ قَبْلَ أَدَاءِ هَذِهِ الضَّحِيَّةِ لِلرَّبِّ الْمَعْبُودِ، وَلاَ يَقْنَعُ بِنَمُوذَجٍ وَقِشْرٍ كَالْجُهَلاَءِ وَالْعُمْيَانِ، بَلْ يُؤَدِّي حَقِيقَةَ أَضْحَاتِهِ، وَيَقْضِي بِجَمِيعِ حَصَاتِهِ، وَرُوحَ تُقَاتِهِ. رُوحَ الْقُرْبَانِ. هَذَا هُوَ مُنْتَهَى سُلُوكِ السَّالِكِينَ، وَغَايَةُ مَقْصَدِ الْعَارِفِينَ، وَعَلَيْهِ يَخْتَتِمُ جَمِيعُ مَدَارِجِ الأَتْقِيَاءِ، وَبِهِ يَكْمُلُ سَائِرُ مَرَاحِلِ الصِّدِّيقِينَ وَالأَصْفِيَاءِ، وَإِلَيْهِ يَنْتَهِي سَيْرُ الأَوْلِيَاءِ.»

(الخطبة الإلهامية، الخزائن الروحانية ، ج ١٦ ص ٣١- ٣٢)